الإسلام بين العقل والروح

للدكتور زكي مبارك

قلت مرة : إن الفضال بين الإسلام والنصرانية أتاح فرصاً كثيرة لباحث نفيسة تغذّى القلوب والعقول، وتكشف عن آفاق ما كان يُنتظر أن تُكشف لو أراد الله أن لا يقع ذلك النضال والمجادلة لا تُتمّ إلا إن صدرت عن سوء نية ، لأنها عندئذ تكون عملاً من أسوأ الأعمال ، أما إن صدرت عن رغبة فى الفهم والتحقيق ، فهى عمل مقبول دعا إليه جميع الحكماء فى جميع البلاد

وأنا ماضٍ فى تبديد شبهة وجّهت إلى الإسلام ألوف المرات ، وسأقضى على تلك الشبهة قضاء مبرماً . سأقتلع جذورها فلا تنبت بعد اليوم ، وسأقوّض جدرانها فلا يقوم لها بناء إلى آخر الزمان

فما هى تلك الشبهة ، ولا أقول التهمة ، ترفقاً بالمجادلين ؟

هى قولهم إن الإسلام شريعة مدنية ، وليس عقيدة دينية ، فهو فى نظرهم مجموعة قوانين ، وليس ديناً يهتم بتأصيل المعانى الروحية فى صدور المؤمنين

وزادوا فقالوا : إن الإسلام لم تشع فيه الروح إلا حين عرف التصوف ، والتصوف فى رأيهم نزعة مسيحية المِرق ، وليس لها فى الإسلام أصول

وأسارع فأقرر أنه لا يضير الإسلام أن يكون مجموعة قوانين ، فسنرى بعد لحظات معنى هذا من الوجهة الروحية ، وهى مثار الاعتراض

وأقرر أيضاً أن المعانى الإسلامية المقبوسة من المسيحية ليست سرقات ، حتى يعيرنا بها فريق من الناس ، وإنما هى ميراث أخذناه باستحقاق ، لأن الإسلام بنص القرآن هو الوارث لجميع الشرائع السماوية ، والمؤلفون المسلمون ينقلون أقوال سيدنا موسى وسيدنا عيسى باحترام ، تقرباً إلى الله ، لأن الله أوصى سيدنا محمداً بإعزاز جميع الأنبياء والمرسلين

وإذا كان التصوف الإسلامى منقولاً عن أصول مسيحية — ولنسلّم جدلاً بهذا — فما كان التصوف مما اتفق عليه جميع أئمة المسلمين ، فقد ثار عليه رجال من أقطاب الباحثين ، وعدّوه خروجاً بالإسلام عن صبغته الأساسية ، وهى الصبغة التشريعية

ومعنى هذا أن الهدية مردودة إلى مهديها الأول ، على فرض أن التصوف هدية ، وعلى فرض أنه بعيد من الروح الإسلامى

إسمعوا يا أيها المجادلون بلا بصيرة وبلا يقين

أنتم اعترفتم بأن الإسلام يعرف العقل ولا يعرف الروح ، بدليل أنه فى نظركم ليس إلا مجموعة قوانين

وهنا الخطر كل الخطر ، الخطر عليكم لا عليه ، فالخطأ فى الحكم المدنى أو الجنائى لا يحتمل الجدال ، لأن نقضه أسهل من السهل ، بسبب ارتكازه على العقل ، فلو كانت القوانين التى أذاعها الإسلام واهية الأساس ، لثار عليه المشرّعون فى جميع بقاع الأرض ، وعدّوه أسطورة بدوية منقولة عن سراب الصحراء

ولا كذلك الخطأ فى الحكم الروحى لأن الحكم الروحى غير محدود بحدود ، فمن حق كل روحانى أن يسفّه من يخرجون عليه ، بحجة أنهم محجوبون عن الروح ، وذلك باب يدخل منه الدخلاء والأصلاء على السواء

وإذن يكون الإسلام تحدّى جميع الديانات ، تحداها بالعقل قبل الروح ، تحداها بما لا يجوز فيه الخطأ ، وهو التشريع ، تحداها بالنبى الأمىّ ، ليعرف من لا يعرف أن وحى السماء فوق إيحاء الكتاب

ما ذا أقول ؟ هل بددت الشبهة ؟ وكيف والكلام إلى هنا

يؤيد القول بأن الإسلام دين العقل ، وليس دين الوجدان ؟

أفترع الحديث فأقول :

إن التهمة صحيحة ، تهمة الإسلام بأنه لا يقصر اهتمامه على الشؤون الروحية ، وإنما يوزع اهتمامه على كثير من الشؤون العلمية والاجتماعية والمعاشية ، وهنا المطعن الذى لا ينفع فيه علاج (؟ !م)

إسمعوا ، ثم اسمعوا ، يا أيها المجادلون

كل مايعرف المسلمون من العلوم والفنون والآداب والقوانين ليس إلا وسائل لغاية صريحة هى خدمة القرآن ، والقرآن وحى من الله ، وبخدمة القرآن نتقرب إلى الله

علوم النحو والصرف والمعانى والبيان والبديع علوم تساعد على فهم القرآن ، فهى وسائل أدبية لغاية دينية ، فنحن نتقرب بها إلى الله

وعلم الفقه ينظم المعاملات بين الناس ، ليعرفوا سبيل النجاة من غضب الله ، فنحن بعلم الفقه نتقرب إلى الله

وعلم الحساب يساعد على تحديد الأغراض الاقتصادية بين الناس ، فنحن بعلم الحساب نتقرب إلى الله

وعلم الفلك يساعد على تحديد المواقيت ، فنحن بإدراك دقائقه نتقرب إلى الله

وعلم التاريخ يحلق العظة بالحوادث ، وقد رآه القرآن من وسائل الترغيب والترهيب ، فنحن بعلم التاريخ نتقرب إلى الله

لاموجب للاطناب ، ففى أول كل كتاب نجد الراجزيقول :

إن مبادى كل فن عشرة الحد والموضوع ثم الثمرة

إلى آخر ما قال ، ولاموجب للنص على أن علماء المسلمين لم يدركوا للعلم غاية غير خدمة الشريعة الإسلامية ، فذلك واضح فى جميع مؤلفاتهم ، حتى علم الحساب . وقد راعى هذا المعنى أستاذنا محمد بك إدريس فنص عليه فى مقدمة كتاب الحساب لطلبة الأزهر الشريف

جميع العلوم والفنون وسائل لخدمة الدين الإسلامى ، والتكسب أو التسبب له فى الإسلام آداب ، مع أن الظاهر يوهم أنه بعيد من الروح

كل خطوة تخطوها فى صباحك أو مسائك ، لها فى حياتك المعاشية صلات بحياتك الدينية ... بهذا يوصيك الإسلام ، لأنه دين العقل والروح

إن الحج وهو فريضة دينية ، أبيحت فيه المنافع المعاشية ، لأن الله يرى أن جميع الفضائل وسائل إلى رفاهية المعاش

وهل ننسى أننا نطيع الله لننعم بالفردوس ؟

المزية الصحيحة للاسلام هى دعوته إلى أن نسيطر على جميع بقاع الأرض ، لنحقق الصلة بيننا وبين الله بإقامة دعائم العدل فوق جميع البقاع ، ولنحقق إرادته السامية فى أن تكون الكلمة العليا لله وللمؤمنين

مزية المسلمين أنهم لا يقابلون الله وجهاً لوجه ، كما يتوهم المسيحيون ، وإنما يقابلونه فى مخلوقاته من الأنهار والبحار ، والجنة والناس ، والحقائق والأباطيل

وأين الله ؟ هل رآه من يدعون أنهم أبناؤه ، صادقين أو كاذبين ؟

المسلم هو الصورة الحقيقية للمؤمن

المسلم هو خليفة آدم ، وقد جعل الله آدم خليفة على الأرض ، وللأرض آداب لا تعرفها السماء ، لأن فيها تكاليف لم يسمع بها سكان السماء

المسيحى يخاطب الله فى ذاته فيستريح ، والمسلم يخاطب الله فى مخلوقاته فيتعب ، والتعب شارة الرجال

وأنا مسلم ، لأن الإسلام يوجب على أبنائه أن يذكروا الله فى جميع الشؤون

أنا مسلم بالرغم منى ، لأنى لا أرى ديناً يفوق ما فى الاسلام من تكاليف ، والتكاليف هى الأساس لتجربة أخلاق الرجال

أنا مسلم بالعقل وبالروح ، والدين عند الله هو الاسلام ، لأنه الصورة النهائية للحسن والصدق فى التشريع

حاولت أن أرتاب فى الاسلام فلم أستطع ، حاولت بالعقل وبالروح فى حدود ما أطيق ، وأين أنا مما أطيق ؟

الآن آمنت بأن الاسلام دين العقل والوجدان .

زكى مبارك